المقاييس الاجتماعية وتطبيقاتها في الخدمة الاجتماعية

الوحدة الأولى: تاريخ القياس النفسي والاجتماعي ص1

بدأ القياس في مجال العلوم السلوكية منذ منتصف القرن التاسع عشر متخذا من علم النفس النقطة التي انطلق منها مع المحاولات الجادة لدراسة الظواهر السيكولوجية من منظور علمي يقوم على الملاحظة المضبوطة بعيدا عن التأمل العقلي.

ويختلف كثير من الباحثين في تحديد هذه البدايات، والتي قد تتضمن الإشارة إلى أعمال فيبر Weber (١٨٧٨) السيكوفيزيقية، كما قد تتضمن أيضا الإشارة إلى أعمال يوهانس مولر J. Muller (١٨٥١) التي انصبت على دراسة الحواس وردود الأفعال Reflex Action، ويمكن أيضا أن تكون البدايات بـ فونت Wundt مؤسس أول معمل لعلم النفس، والذي كان يشجع قياس الوظائف النفسية المختلفة، وتلاميذه أمثال جيمس كاتل J. Cattell الذي اهتم بالفروق الفردية وقياسها وأزمنة الرجع Reaction time ومدى الانتباه، والسير فرنسيس جالتون F. Galton المكتشف الحقيقي لمجال الفروق الفردية والقياس من خلال إقحام أصيل نظرية التطور ومعطياتها، هذا بالإضافة إلى كارل بيرسون C. Person الذي طور وطور أساليب جالتون الإحصائية.

ويعد مجال التخلف العقلي أكثر المجالات التي برزت من خلالها مشكلة القياس والتمييز بين الأفراد، ويذكر في هذا المجال جهود إسكيرول J. Esquirol وسيجون seguin حيث مز الأول بين المرض العقلي والتخلف العقلي وحدد مستويات للتخلف، وحدد الثاني محكات للتمييز بين مستويات التخلف (أبله - معتوه - متخلف - أحمق) .. إلخ

ص٢

وتعود أهمية أسكيرول وسيجوين في تاريخ القياس إلى أن كليهما أكدا على أهمية مشكلة التخلف العقلي التي كانت محور الاهتمام في بدايات القرن العشرين والتي من خلالها ظهر الفريد بينيه A. Binet ما عرف باسم مقاييس الذكاء.

والواقع الأمر أنه لا يستطيع أحد بأي حال من الأحوال إنكار فضل "بينيه" في ترسيخ حركة القياس، حيث ظل مشغولا لفترة طويلة بوضع أو إيجاد وسيلة مناسبة لقياس الذكاء، وبعد نشر دراسته التجريبية عن عمليات التفكير سنة ١٩٠٤ عين وزير التعليم آنذاك في فرنسا عضوا في لجنة خاصة مهمتها إيجاد الوسيلة المناسبة لعزل غير المستفيدين من البرامج التعليمية المدرسية والتمييز بين "المتخلفين عقليا" و "البلداء"، وعاونه ثيودر سيمون T. simon استطاع بينيه تقديم مجموعة من الاختبارات التي تقيس الذكاء سنة ١٩٠٥ دون أي قدر عارف فيما بعد بالتقنين standardization، ثم قام بتعديل المقياس سنة ١٩٠٨ محاولا تفادي بعض العيوب، وتعديل أخر عام ١٩١١ قبل وفاته بقليل، ورغم وضوح مفهوم القياس وطريقته لدى "بينيه" وقدرته المتميزة على تقديم اختبارات متميزة في التعديل الأخير، إلا أن التحديد النظري لمفهوم الذكاء ظل مشكلة بالنسبة له.

ورغم أنه سبب دائما لبينيه "أكثر من أي شخص آخر فضل جذب الانتباه لمشكلة القدرة العقلية ووضعها في برنامج لقياسها وتقديمها بالمقاييس، إلا أننا لا يمكن أن نغفل اهتمام "وليم شتيرن" W. stern في الفترة نفسها بمشكلة الفروق الفردية، وهو الذي قدم ابتكار طريقة حساب "نسبة الذكاء"

Intelligance Quotient (I.Q) والتي تعني العمر العقلي بالعمر الزمني بدلا من الاعتماد على العمر العقلي فقط.

وعلى صعيد آخر لعبت الولايات المتحدة الأمريكية وانجلترا دورا كبيرا في تطور حركة القياس في النواحي السلوكية؛ فبعودة جيمس كاتل إلى أمريكا ونتيجة لتأثره بتقاليد التجريب في معمل فونت، وعودة جالتون إلى انجلترا بدأ القياس يجد التربة الخصبة التي استفاد منها من عوامل تاريخية عديدة شاركت في تطوره.

ففي أمريكا حدث أول تطبيق حقيقي لاختبارات كاتل حيث قام بتطبيق مقاييسه على الطلاب المتقدمين في جامعة كولومبيا الأمريكية، وكانت أول بطارية مقاييس تطبق على أعداد كبيرة من الأفراد، واستخدم هذه المقاييس عددا كبيرا من العلماء من أمثال باتريك Patrik وكيلي Kelly ونورثورثي Norsworthy. كما تم ترجمة مقياس بينيه للغة الانجليزية على يد جوداد Goddard عام ١٩١٠م وقام لويس تيرمان L. Terman بإجراء دراسات عديدة على المقياس نشر نتائجها عام ١٩١٦م تضمنت تعديلات للمقياس والذي عرف بعدها باسم مقياس "ستانفورد - بينيه" والتي تلاها عدد كبير من التعديلات على المقياس الذي يستخدم حتى وقتنا هذا لقياس الذكاء.

وكان لدخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٧ تأثيره الحاسم على حركة القياس، حيث عهد إلى يركس R. Yerkes أحد علماء النفس بتقديم اسهامات للسيكولوجيين في جهود الحرب، وكانت النتيجة إقامة تنظيم

شديد الكفاءة لاستخدام المقاييس في مساعدة الجيش على فرز المجندين وفحص الأفراد وانتقاء القادة ورجال المهام الخاصة .. ومنذ ذلك الحين لم تتوقف حركة القياس عن النمو والتطور ، وظهر مقياس وكسلر-بلفيو (١٩٢٩) الذي وضعه ويفيد وكسلر D. Wechsler الأخصائي النفسي في مستشفى بلفيو في محاولة لتطوير مقياس الذكاء .

كما لعب التحليل العاملي دورا آخر في تطور القياس النفسي على يد سبيرمان spearman وبعده سيريل بيرت S. Burt وطومسون G. Thomson وغيرهم .

أدت كل هذه الدراسات المبكرة في قياس الذكاء والقدرات العقلية إلى تنمية البحوث في المقاييس وتطور القياس في اتجاهات متعددة ، وتساءل البعض : لم لا يمتد القياس إلى مجالات أخرى مثل سمات الشخصية ، والاهتمامات ، والاتجاهات .. ولا يعني هذا أن قياس الشخصية وتغيراتها لم يبدأ إلا متأخرا ولا حتى قياس القدرات ، فالجهود الخاصة بقياس متغيرات غير عقلية كانت واضحة منذ أواخر القرن التاسع عشر حينما اقترح جالتون وتلاه تلميذه بيرسون عددا من اختبارات الشخصية Questionnaires كما كان لجونج Jung في سويسرا وروزانوف Rosanoff في أمريكا إسهاماتهما في هذا المجال وكانت ترمي إلى الوصول لسمات الشخصية العميقة والتمييز بين الأفراد .

٥م

وعلى التاريخي لبداية الحركة النشطة في قياس سمات الشخصية بالحرب العالمية الأولى أيضا حيث يعهد إلى وودورث Woodworth بمهمة استبعاد المجندين الذين يعانون من اضطرابات في الشخصية ووضع قائمة تتضمن ١١٦ بندا عرفت باسم woodworth data personal sheet تقيس مجموعة من الاضطرابات مثل المخاوف والوساوس والأفكار الهزيلة والأحلام المزعجة واضطرابات النوم والتعب المفرط وبعض الأعراض السيكوسوماتية، والتي تم على أساسها استبعاد من لديهم اضطرابات في الشخصية.

ومن بعده قدم عديد من العلماء اسهامات في مجال قياس الشخصية مثل مثل ألبورت Alport ١٩٤٨، وهاثاواي وماكينلي S. Hathaway & j. McKinley اللذان قدما اختبار مينيسوتا المتعدد الأوجه للشخصية والمعروف باسم MMPI وغيرهم.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه في حين نجد أن الأساليب التي تستخدم لقياس سمات الشخصية تعترضها كثير من الصعوبات المنهجية وتبدو الاستجابات فيها أقل ثباتا من مقاييس القدرات، كانت هذه الأساليب مناسبة بدرجة أكبر لقياس الاتجاهات والميول والاهتمامات. ومهما كانت صعوبة الاتجاهات ومجالها سواء سياسية أو اجتماعية أو دينية فهي تقبل التصريح بها والتعبير عنها بصورة مباشرة وغالبا ما تتعرض للأساليب الإسقاطية أو تؤدي إلى موقف عدواني من جانب المبحوث، وهو ما كما يحدث في المقاييس الشخصية.

وتعد مقاييس ثرستون Thrustone لقياس الاتجاهات الاجتماعية من المحاولات المبكرة التي صدرت منذ ثلاثينيات القرن العشرين لقياس اتجاهات نحو الحرب ونحو الزنوج والشيوعية والرأسمالية، ولم تقتصر على قياس مواقف الأفراد من الموضوعات الاجتماعية العامة بل إلى قياس الاتجاهات نحو مشكلات أو مواقف محددة.

وقد تعددت المحاولات في هذا المجال وفي مجال قياس الاهتمامات وأول موضع سترونج E. strong مقياسه الخاص بقياس الاهتمامات المهني ١٩٢٧ وتوالت المحاولات فيما بعد.

هذا وقد كان لمفهوم الإسقاط projection الذي قدمه فرويد أهمية خاصة في ظهور مجموعة من مقاييس الشخصية عرفت باسم الأساليب الإسقاطية على يد الجديدة من الفرويديين من أمثال يونج Yung ورورشاخ H Rorschach الذي قدم اختبار بقع الحبر، و موراي "Murray" الذي قدم اختبار تفهم الموضوعي وغيرهم.

ومن ثم أخذت حركة القياس في الاتساع في مجال العلوم السلوكية والاجتماعية وأسهمت بقدر واضح في إرساء أسس نظرية أساسية وتقديم خدمات عملية واجتماعية.